المقدمة

موضوع البحث ومصادره ومنهجه

- ١ -

ظلت العلاقات بين الشرق والغرب رهينة عاملي الاتصال الحضاري و الاحتكاك الحربي زمناً طويلاً، وقد كان القرن الرابع الهجري، زمن المتنبي، شاهداً على حدة تلك العلاقات مما جعل الغربيين، منذ الامبراطور نقفور فوكاس (٩٢١ - ٩٦٩م) Nicephore phocas حتى يومنا هذا، يولون تلك الفترة عناية قصوى. ثم أتى على الشرق زمان صار فيه كياناً ممتصاً لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشورا، ثم شهدت تلك العلاقات في العقود الأخيرة، تحولاً رافقه ارتجاج مس الجوانب السياسية والفكرية والدينية، وكان من أثر ذلك تجديد الحياة في مجالات كان قد صار يعتقد أنها أضحت في ذمة التاريخ، ومن تلك المجالات: الاستشراق والاستشراق المضاد، وقد بلغ من عنف تلك الرجة التي أصابت الأفراد والمؤسسات على السواء، أن وضع الاستشراق على مشرحة البحث داخل بعض المؤسسات الغربية نفسها، وجأرت الأصوات بضرورة تدمير آليات الاستشراق التقليدي[١]، أو المؤسسة الاستشراقية عموماً.[٢]

ولكن معظم الأقلام العربية التي تناولت الاستشراق بالدراسة، ظل بعيداً عن كشف المكونات الأساسية للدراسات الاستشراقية. وقد كان الاهتمام بالدراسات الإسلامية خاصة، لكونها غرضاً مباشراً لكثير من المستشرقين.

---

(١) مكسيم رودنسون في (جاذبية الإسلام) M. Rodinson: La faxination de l Islam ترجمة الياس مرقص. ط ١ - ١٩٨٢ - دار التنوير - بيروت.

(٢) بريان تيرنر في (ماركس ونهاية الاستشراق) B.S.Turner: Marx and the End of Orrientalism, George Allen and Unwin, London 1978 ترجمة: يزيد صائغ ط ١ - ١٩٨١ مؤسسة الأبحاث العربية - بيروت.

أما موضوع الاستشراق والأدب العربي، فما كتب فيه محدود ولا يفي بالغرض.

اننا حين نستعرض جهود المستشرقين في ميدان الأدب العربي، نشراً وتحقيقاً وتعليقاً وترجمة ودراسة، نقع على قدر هائل من الكتابات التي تراكمت بفعل الامتداد الزمني، والاتساع المكاني، ومهما يكن موقفنا من الدرس الاستشراقي، فاننا لا نملك الا أن نقر بما بذله المستشرقون من جهود عظيمة، لخدمة الأدب العربي، اما باخراج كنوزه وجعلها في متناول الشرقيين أنفسهم، وإما باثارة جملة من القضايا التي لا شك في جدتها وخصوبتها، بغض النظر عن القيمة العلمية للنتائج المتوصل إليها.

ومما لا شك فيه أن تناول كل ما صدر عن الاستشراق في هذا الميدان، في بحث فريد، لممّا قد يعز ادراكه، الا أن يكون ذلك عن طريق المسح الأفقي السريع، والاطلالة العجلى، دون الفحص الدقيق، والدراسة المتأنية.

ولكن اجتياز الليالي الألف يبدأ بخطوة واحدة، وادراك العام يبدأ من الخاص، كما أن الاقليمية هي (الوسيلة الوحيدة للم شتات الأدب العربي، في كل الأقطار التي ابدعته، والوسيلة كذلك للعالمية والانسانية)[1] ولذلك كان لا بد، عند معالجة الاستشراق والأدب العربي، من الانطلاق من الجزء الى الكل. كأن نتناول ظاهرة أدبية في عصر معين، أو في اقليم معين، أو نتناول شاعراً أو أديباً بعينه لا نعدوه، ومن هنا آثرت تحديد هذا البحث وقصره على (المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين).

منذ حوالي خمسين سنة خلت، أبدى محمد بن الحسن الوزاني رغبته في (اخراج بحث مستفيض من كتابات المستعربين الغربيين عن المتنبي)[2] وكان وراء هذه الرغبة أسباب منها جعل (البحوث التي يكتبها المستعربون عن كل ما يتصل بقوميتنا من حيث الدين واللغة والمعارف العامة) في متناول الذين لا معرفة لهم بغير العربية من أبناء الوطن[3]. ولكنه حيل بينه وبين ما يشتهي.

---

(١) عباس الجراري: الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ـ مطبعة المعارف ـ الرباط ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦ ـ ج ١ ـ ص ٨.

(٢) مقال بلاشير: (الشاعر العربي المتنبي والغرب الإسلامي) المنشور بمجلة الأبحاث الإسلامية R.E.I (المجلد ١ ـ ١٩٢٩. تعريب الاستاذ محمد بن الحسن الوزاني (مع كلمة تمهيدية للمعرب) مجلة «المغرب الجديد» ع: ٩ ـ ١٠ ـ (فبراير ـ مارس ١٩٨٦) وقد اعيد نشر المقال في سلسلة (حرب القلم) الجزء السادس ـ ص ٧٧ ـ ٩٠ الناشر مؤسسة الحسن الوزاني ـ ١٩٨٦.

(٣) نفسه: ٧٧ ـ ٧٨.

ولعل النهوض بهذا الأمر ضروري، لا بنقل ما لم ينقل من بحوث المستعربين عن المتنبي إلى العربية فحسب، ولكن بفحص هذه البحوث وتقويمها، ولا سيما وقد تسربت كثير من آراء المستشرقين إلى الدارسين العرب، فراح معظمهم يرددها دون عرضها على محك النقد.

وتسأتي هذه الضرورة مرجحة لاختياري (المتنبي في دراسات المستشرقين الفرنسيين) موضوعاً لهذا البحث. ومما لا شك فيه أن الموضوع، في صيغته المقترحة، يكتسب حداً زمانياً وآخر مكانياً. فأما الحد الزماني فتفرضه طبيعة المادة المدروسة، إذ أن أول إشارة الى المتنبي في الاستشراق الفرنسي خاصة ـ والاستشراق عامة ـ هي تلك التي أوردها ديربلو Barthelemi dHerbelot (١٦٢٥ ـ ١٦٩٥) في كتابه الضخم: المكتبة الشرقية[١]، الصادر عام ١٦٩٧. وهذا يعني أننا أمام ما يقرب من ثلاثة قرون من الدراسات المتنبئية بفرنسا. بيد أننا عند التأمل، نجد أن علينا أن ننتظر حوالي قرن من الزمان، بعد صدور (المكتبة الشرقية) قبل أن يبعث دوساسي Silvestre Desacy (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨) تلك الدراسات من مرقدها، ويدفع بها قدماً. وهكذا يكون العمر الحقيقي للدراسات المتنبئية في فرنسا يقرب من قرنين من الزمان.

وأما الحد المكاني فقد حصرناه في فرنسا، لجملة اعتبارات أهمها:

١ ـ إن الدراسات المتنبئية في الغرب كتبت بحوالي ثماني لغات[٢]، وأغلب تلك الدراسات لم ينقل إلى العربية (مع العلم أن الترجمة لا تغني دائماً عن الرجوع إلى الأصل) والاطلاع عليها جميعاً في لغاتها ـ فضلاً عن تقويمها ـ مما يعز ادراكه دون اتقان تلك اللغات جميعاً.

٢ ـ لقد كان لفرنسا حظ وافر من تلك الدراسات، ولعل أهم ما كتب عن المتنبي في الغرب، جاء من الاستشراق الفرنسي، الذي لا يكاد يضاهيه في هذا المجال الا الاستشراق الألماني.

هذان السببان خاصة، جعلانا نقف عند حدود الاستشراق الفرنسي.

---

(١) Bibliothe'que orientale, ou dictionnaire unviersel.

صدرت الطبعة الأولى، بعد وفاة المؤلف، بعناية كَالان A. Galland عام ١٦٩٧ والطبعة التي نحيل عليها هي الصادرة في باريس عام ١٧٨٢.

(٢) كتبت عن المتنبي دراسات بالفرنسية والانكليزية والاسبانية والألمانية والايطالية واللاتينية والروسية والبولندية. راجع: كوركيس عواد ميخائيل عداد: رائد الدراسة عن المتنبي ـ بغداد ـ ١٩٧٩.

إذا ما حاولنا استقصاء الكتابات التي باشرت موضوع (الاستشراق والمتنبي)، وجدنا عدداً لا بأس به من الأسماء والعناوين، بيد أن الدراسات الجادة في ذلك قليلة إلى درجة الشح. وان الدارس المطلع ليجزم جزماً قاطعاً أن أوفى ما كتب عن الاستشراق والمتنبي قد صدر عن الاستشراق نفسه، وأعني بذلك القسم الذي خص به بلاشير R. Blachére (١٩٠٠ - ١٩٧٣)، ديوان المتنبي عند المستشرقين من أطروحته التي تقدم بها عن المتنبي عام ١٩٣٥[١]. وانه ما يزال معظم ما كتب في الموضوع، حتى الآن، عالة على بلاشير، رغم أن الوقوف عند ما كتبه بلاشير يعد نوعاً من العجز الذي ينبغي تخطيه لعدة أسباب منها:

١ - إن عمل بلاشير الذي لم يقتصر على الاستشراق الفرنسي، دون الاستشراق الأوروبي عامة، كان في ظاهره يتسم بنوع من الشمول، إلّا أنه كان في جوهره متسماً بالعجلة[٢].

٢ - لقد مر على دراسة بلاشير المذكورة ما يزيد على نصف قرن من الزمان، وقد استحدثت منذ ذلك العهد دراسات عن المتنبي، منها دراسة بلاشير نفسه التي أصبحت جزءاً من التراث الاستشراقي الذي ما يزال بحاجةالى دراسة تقويمية شاملة. كما ظهر من كتب التراث المتعلق بالمتنبي، ما لم يكن معروفاً على عهد بلاشير إلا بأسمائه أحياناً، مما ساعد على تصحيح الصورة أو تعديلها، فكان ذلك باعثاً آخر من بواعث هذا البحث.

٣ - إن بحث بلاشير، حين يعرض للاستشراق، يظل بحثاً استشراقياً أي أنه رؤية

---

(١) Un poéte arabe du IV siécle de lhegire (X siécle de J.C): Abouf-Tayyib al-Motanabbi. Essai dhistoire litteraire. Paris-1935

وقد ترجم الكتاب كاملاً الى العربية ابراهيم الكيلاني بعنوان: (أبو الطيب المتنبي: دراسة في التاريخ الأدبي) وزارة الثقافة - دمشق - ١٩٧٥.

كما ترجم القسم الثاني من الكتاب أحمد أحمد بدوي، بعنوان: (ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين) ط نهضة مصر - د ت.

(٢) خص بلاشير الفصل الخامس من القسم الثاني من دراسته لموضوع (ديوان المتنبي عند المستشرقين) ولم يتجاوز هذا الفصل تسع عشرة صفحة (٣٢١ - ٣٣٩) من الدراسة التي استغرقت حوالي ٣٥٠ صفحة.

غربية إلى الغرب في تناوله ظاهرة شرقية جسدها المتنبي ولا يخفى ما قد يكون في هذا من زلل مصدره الهوى أوالتعصب. وقد كان لا بد من رؤية «شرقية» الى تلك الدراسات، تسعى الى التجرد والموضوعية على قدر الاستطاعة، في موضوع يتّسم بطبيعته بكثير من الحساسية.

- ٣ -

لعل من الصعوبات الأولى التي تواجهنا في البحث استقصاء مادته، ومصادره، وهي - بالنسبة لهذا البحث - متشعبة وممتدة في الزمن. ليس هذا بحثاً خالصاً عن المتنبي، بقدر ما هو دراسة تحليلية نقدية للدراسات الاستشراقية التي تناولت المتنبي، وان كانت نتائج البحث ستسهم - فيما أظن - في تصحيح بعض الأمور المتصلة بالمتنبي، شاعراً وانساناً. لقد كان من الطبيعي أن ينصب الاهتمام على استقصاء المادة المشكلة لتلك الدراسات الاستشراقية نفسها، ثم محاولة الاستهداء بما يمكن أن يكون قد كتب عن تلك الدراسات من بحوث وصفية أو نقدية. ومن المؤسف أن هذا الصنف الذي يعالج الرؤية والمنهج الاستشراقي قليل كما سبقت الاشارة، وهو لا يعدو أن يكون شذرات متفرقة لا تكاد تقدم لنا صورة - ولو شبه متكاملة - عن الموضوع، مهما اجتهدنا في لم شتاتها، ولذلك كان لا بد من الاعتماد على الدراسات الاستشراقية نفسها، في أصولها. وبما أن موضوع تلك الدراسات هو المتنبي فانه يكاد يكون ضرباً من العبث فهمها فهماً سليماً، دون الرجوع إلى المصادر الأولى، وعلى رأس تلك المصادر ديوان الشاعر وما اتصل به من شروح، ثم ما تلا ذلك من كتب النقد والتراجم التي عرضت لابي الطيب، مدحاً أو قدحاً.

وليس من الضروري، هنا، عرض مصادر البحث جميعها، ولكن لا بد من الاشارة إلى أكثرها أهمية، وهي بصفة عامة تنقسم الى مصادر عربية وأخرى أجنبية.

أولاً المصادر العربية:

أ - الديوان وشروحه:

١ - أول شرح يقف عليه دارس المتنبي وأقدمه شرح ابن جني، أبو الفتح عثمان، المتوفى عام ٣٩٢هـ.

لقد وضع ابن جني لشعر المتنبي أكثر من شرح. ومما هو موجود بين أيدينا من تلك الشروح:

ـ الفسر[1]: أو شرح ديوان أبي الطيب. وقد عالج فيه ابن جني ديوان أبي الطيب كاملاً.

ـ الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي[2]: وقد فتح به ابن جني باب شرح (أبيات المعاني).

وتنبع قيمة شرح ابن جني من كونه أقدم الشروح التي وصلتنا، كما اكتسبت شروحه على شعر المتنبي قيمة إضافية استمدتها من تلمذته لأبي الطيب، ومن قراءته عليه جزءاً من شعره واستفساره إياه عن بعض معانيه ومناقشته في تخريج ما فيه من صيغ وتراكيب لغوية[3].

٢ ـ ابن فورْجة البروجردي، أبو علي محمد بن محمد (ولد عام ٤٠٠هـ وكان حيّاً عام ٤٥٥هـ). وقد ترك لنا رسالتين إحداهما عنوانها (الفتح على أبي الفتح) وهي مطبوعة[4]. والثانية عنوانها (التجني على ابن جني) وهي مما لم يزل مفقوداً[5].

٣ ـ ابن سيده، علي بن اسماعيل (المتوفى عام ٤٥٨هـ) صاحب كتاب (شرح المشكل من شعر المتنبي)[6]. وهو من أجل الشروح في بابه.

---

(١) حققه وعلق عليه صفاء خلوصي. صدر الجزء الأول منه عام ١٩٦٩م، وصدر الجزء الثاني عام ١٩٧٧ ببغداد.

(٢) حققه محسن غياض. وصدر ببغداد عام ١٩٧٣.

وانظر تعليقاً حول الكتاب وتحقيقه في مقال (ابن جني الناقد) لصاحب هذا البحث في (مجلة المناهل): ع ٣٤ ـ ذو القعدة ١٤٠٦ يوليو ١٩٨٦.

(٣) محمد عبد الصمد الاجراوي: اثر ابن حني في الحركة النقدية حول المتنبي.
(رسالة جامعية مرقونة، نوقشت بكلية الآداب بالرباط عام ١٩٨٧) ص. أ.

(٤) حققها عبد الكريم الدجيلي ـ بغداد ١٩٧٤. وقد توهم كل من بروكلمان وبلاشير أن الكتاب الموجود هو كتاب (التجني على ابن جني) وقد نبه على ذلك الوهم محسن غياض في مقدمة كتاب (الفتح الوهبي).

(٥) عثر محسن غياض على ٩٦ نصاً من هذا الكتاب نشرها بعنوان (التجني على ابن جني) في مجلة (المورد) م. ٦ ـ ع. ٣ ـ ١٩٧٧ ـ ص ٢١٣ ـ ٢٣٦.

(٦) حققه مصطفى السقا وحامد عبد المجيد، وصدر عن الهيئة العامة المصرية العامة للكتاب، بالقاهرة عام ١٩٧٦.

٤ ـ الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد النيسابوري (المتوفى عام ٤٦٨) وقد كان شرحه النفيس عمدة يرجع إليه كثير من المستشرقين ولا سيما بعدما أعده للطبع ووضع فهارسه المستشرق الألماني فريديريك ديتريصي F. DIETERICI (ت: ١٩٠٣م) وصدر في برلين ١٨٦١[١].

٥ ـ العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين (المتوفى عام ٦١٦هـ) صاحب (التبيان في شرح الديوان)[٢]. وهو من الشروح القيمة، فهو يقف على المعاني، وعلى القضايا اللغوية، وربما تتبع ما ذهب إليه سابقوه من أمثال ابن جني والواحدي.

٦ ـ ومن الشروح الحديثة التي رجعنا اليها شرح الشيخ ناصيف اليازجي (المتوفى عام ١٢٨٨هـ ـ ١٨٧١م) المسمى (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). وقد توفي مؤلفه قبل اتمامه، فاضطلع بهذه المهمة ولده ابراهيم (المتوفى عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م) وبهذا الشرح زيادات منسوبة للمتنبي.

٧ ـ عبد الرحمن البرقوقي (المتوفى عام ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م) وقد جعلنا شرحه عمدة، بالرجوع اليه في احالاتنا خاصة، الّا أن نشير الى ما يخالف ذلك، نظراً لتوافر نسخ هذا الشرح بين أيدي الناس، ولانه ـ كما يقول صاحبه في مقدمة الشرح ـ استوفى (جميع تفاسير الشراح ـ من متقدمين ومتأخرين ـ وأقوال نقدة المتنبي ـ من متعصبين له ومتعصبين عليه ـ. . . حتى أربى هذا الشرح على الشروح كلها مجتمعة وحتى صار هذا الشرح شرحاً للمتنبي، وشرحاً لشروح المتنبي. . .)[٣]

هذا وقد استأنسنا عند الحديث عن طبعات الديوان ـ بشرحين آخرين هما:

٨ ـ شرح المحبي (محمد أمين بن فضل الله المتوفى عام ١١١١هـ ـ ١٦٩٩م) وهو شرح بالفارسية عنوانه (محبي شرح ديوان متنبي)، وقد طبع بالهند[٤].

٩ ـ شرح مولانا عبيد الله العبيدي المسمى (تصويب البيان في شرح الديوان)،

---

(١) Mutanabbi Carmina cum commentario Wahidi-Berlin 1861

(٢) ضبطه وصححه ووضع فهارسه: مصطفى السقا ـ ابراهيم الابياري ـ عبد الحفيظ شلبي وفي نسبة هذا الشرح الى العكبري نظر، كما سيأتي.

(٣) شرح ديوان المتنبي: دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ د. ت ـ ص ١٨.

(٤) طبع في كلكته، بعناية مولوي محمد أمين الانصاري. هكذا اطلعت عليه. وفي (رائد الدراسة: ٦٩): «وذكر ادوارد فينديك، في كتابه (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع) (مط الهلال ـ القاهرة ١٨٩٦، ص ٢٩٥)، أن هذا الشرح قد طبع في كلكته سنة ١٨١٤ ميلادية، باعتناء أحمد الانصاري اليمني الشرواني».

وهو شرح بالاوردية ويشتمل على مقدمة بالعربية، وقد طبع بمدينة كانيور، بالهند أيضاً[1].

ب ـ الدراسا ت :

وهي قسمان : قسم غلب عليه جانب النقد سواء أكان هذا النقد صادراًعن تحامل مكشوف كرسالتي الحاتمي[2]، أبي علي محمد بن الحسن بن المظفر البغدادي (المتوفى عام ٣٨٨هـ). ورسالة الصاحب بن عباد، أبي القاسم اسماعيل (المتوفى عام ٣٨٥هـ) الموسومة بـ (الكشف عن مساوىء المتنبي)[3]. ورسالة ابن وكيع، أبي محمد الحسن بن علي التنيسي (المتوفى عام ٣٩٣هـ)، وقد سماها (المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره)[4]. وهي أبعد ما تكون عن الانصاف، أم كان هذا النقد نابعاً من الاعتدال وحب النصف، كرسالة الصاحب الثانية التي سماها : (الأمثال السائرة من شعر أبي الطيب المتنبي)[5] وكتاب القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (المتوفى عام ٣٩٢هـ) : (الوساطة بين المتنبي وخصومه)[6].

وقسم غلب عليه جانب الترجمة للمتنبي والاعتناء بسيرته وأخباره، ومن أقدم ما نجد في ذلك الفصل الوافي الذي عقده أبو منصور الثعالبي (ت : ٤٢٩هـ) في كتابه

---

(١) طبع بعناية محمد عبد المنعم. وجاء في أول الشرح : «فان التبيان للعكبري وان احتوى على ما هو بالمدح حري، ولكن لكونه عربي المباني، يرونه مغلق المعاني فيفر منه الطلاب، فرار الغزلان من الذئاب، ومع ذلك فانه عن بعض مطالبه، أعرض ونأى بجانبه. . . ».

(٢) الأولى في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره. وقد نشرها محققة محمد يوسف نجم في بيروت (دار صادر ـ دار بيروت) ١٣٨٥هـ ـ ١٩٦٥م. وعنوانها : (الموضحة). والثانية تتبع فيها الحاتمي ما ظنه من سرقات أبي الطيب من أرسطو، وقد طبعت مراراً (راجع تعليق م. ي. نجم في الموضحة : ص. و ـ هـ ١) وقد نشر ابراهيم الدسوقي البساطي، في كتاب واحد : (الابانة عن سرقات المتنبي للعميدي) و (الكشف عن مساوىء المتنبي للصاحب بن عباد) و (الرسالة الحاتمية) ط ٢ ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٩. والمقارنة بين (هذه الرسالة الحاتمية التي نشرها البساطي و (الموضحة) التي نشرها نجم، تفيد أنها رسالة واحدة، رغم بعض الخلاف.

(٣) راجع نشرة ابراهيم الدسوقي البساطي.

(٤) حققها محمد رضوان الداية، وصدرت عن (دار قتيبة) ـ دمشق ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

(٥) حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٩٦٥م.

(٦) تحقيق وشرح : محمد أبو الفضل ابراهيم ـ علي محمد البجاوي ـ ط عيسى البابي الحلبي وشركاه ـ د. ت.

(يتيمة الدهر)[1]، وهو فصل يصلح أن يكون بحثاً مستقلاً عن المتنبي.

ومن قبله ألف أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الاصفهاني في حياة المتنبي، كتاب: (الواضح في مشكلات شعر المتنبي)[2] وعن هذا الكتاب نقل عبد القادر البغدادي (المتوفى عام ١٠٩٣هـ) ما يتعلق بترجمة المتنبي، في كتابه: (خزانة الأدب)[3]. إلا أن كتاب الأصفهاني مما ينبغي أن يؤخذ بحذر كبير فقد كان مؤلفه مقرباً من البلاط البويهي الذي كان حافلاً بعداوة أبي الطيب.

ومن المتأخرين الذين اهتموا بأخبار أبي الطيب، الشيخ يوسف البديعي في كتابه (الصبح المنبي عن حيثية المتنبي)[4]. ورغم أن الحس النقدي عند صاحب الكتاب ضعيف إلّا أن ميزته تكمن في أنه جمع كثيراً من الأخبار المتصلة بالمتنبي، ما صحّ منها وما لم يصح، ولذلك كان لا بد للدارس من قدر من الاحتياط والنباهة آن الاقتراب من هذا الكتاب.

هذا وقد أفدنا كثيراً من الكتاب القيم (أبو الطيب المتنبي في آثار الدارسين)[5]لعبد الله الجبوري، فقد جمع فيه صاحبه ما تفرق في مختلف المصادر، من ذكر المتنبي وأخباره.

ولعل من نافلة القول التذكير بأنه كان لا بد ـ في مثل هذا البحث ـ من الوقوف على المؤلفات العربية الحديثة التي شغلت بالمتنبي، ولا سيما تلك التي تمس الاستشراق من قريب أو بعيد، كمؤلفات محمود محمد شاكر[6] وعبد الوهاب عزام[7]

(١) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (أربعة أجزاء) ـ دار الفكر ـ بيروت ـ ط ٢ ـ ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م ـ وتوجد ترجمة المتنبي في الجزء الأول: (ص. ص. ١١٠ ـ ٢٢٤).

(٢) تحقيق محمد الطاهر بن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٩٦٨.

(٣) تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون ـ وترجمة المتنبي في الجزء الثاني (القاهرة: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م) ص. ص. ٣٤٧ ـ ٣٦٣ ـ وقد سمى البغدادي كتاب الاصفهاني (ايضاح المشكل لشعر المتنبي).

(٤) حققه: مصطفى السقا ـ محمد شتا ـ عبده زيادة عبده ـ دار المعارف ـ مصر ـ الطبعة الثانية د. ت.

(٥) منشورات وزارة الثقافة والفنون ـ الجمهورية العراقية. صدر بمناسبة مهرجان المتنبي ـ بغداد ـ تشرين الثاني ١٩٧٧.

(٦) المتنبي، مط المدني ـ القاهرة ـ د. ت. وقد ظهر هذا البحث أول مرة في مجلة (المقتطف)، يناير ١٩٣٦.

(٧) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام، دار المعارف بمصر ـ الطبعة الثالثة ـ ١٩٦٨.

وطه حسين[1] ومارون عبود[2] وشوقي ضيف[3] ومحمد عبد الرحمن شعيب[4] وعصام سيوفي[5] وسواهم.

ثانياً: المصادر الأجنبية:

وهي موزعة ما بين دراسة مطولة في كتاب، ومقال منشور في دورية من الدوريات، ونصفها تقريباً (حوالي ستة وخمسين مصدراً) يعرض عرضاً مباشراً لأبي الطيب، إما بالاختيار، وإما بالسيرة والأخبار، وإما بالدراسة والتعليق.

وهي متفاوتة، بطبيعة الحال، من حيث القيمة العلمية، ومن حيث الجدة والابتكار. ولذلك كله كان لا بد من التركيز على أكثرها أهمية، وأبعدها أثراً في الحقل الاستشراقي، وفي الدراسات العربية دون اغفال شيء منها. وبناء على هذا كان التركيز على الأسماء التالية:

١ ـ سلفستر دوساسي S. Desacy (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨) وهو شيخ المستشرقين الأوربيين في عصره كافة وقد عرض للمتنبي في أكثر من موضع من مؤلفاته العديدة، ولعله أول فرنسي أو لى المتنبي عناية فائقة فترجم من شعره، وساق أخباره، وكانت له فيه آراء ونظرات، وكل ذلك كان له أثر على المستشرقين من بعده. ولعل أهم مؤلفاته في هذا الباب (المنتقيات العربية)[6] التي وضع لها بالعربية عنواناً مسجوعاً كالتالي:

---

(١) مع المتنبي، دار المعارف بمصر. د. ت.

(٢) الرؤوس، دار مارون عبود ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ الطبعة الخامسة ـ ١٩٧٢.

(٣) الفن ومذاهبه في الشعر العربي، وقد اعتمدنا طبعتين لبيان الاختلاف الموجود بينهما، الطبعة السادسة والطبعة العاشرة، وكلتاهما صادرتان عن دار المعارف بمصر.

(٤) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث، دار المعارف بمصر ـ ١٩٦٤.

(٥) العوامل السياسية في شعر أبي الطيب المتنبي، دار الفكر اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ـ ١٩٨١م.

(٦) Chrestomathie arabe, ou extraits de divers écrivains arabes, tant en prose qu'en vers, avec une traduction et des notes.

وقد صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في باريس عام ١٨٠٦. وصدرت الطبعة الثانية، وعليها عبارة (منقحة ومزيدة) Covigée etaugmentée عام ١٨٢٦ ـ ١٨٢٧، وهي الطبعة التي اعتمدناها في البحث. وقد ذكر بلاشير أن هذه الطبعة مطابقة تماماً للطبعة الأولى رغم اقراره بأنه لم يتمكن من اطلاعه على الطبعة الأولى. (راجع: ٣٢٤ : un péfe arabe) ورغم أن دوساسي يشرح في الطبعة الثانية سبب اختلافها عن الأولى (Chrestomathie arabe: TI, PP IX-X)

«الأنيس المفيد للطالب المستفيد، وجامع الشذور من منظوم ومنثور». ويقع هذا الكتاب في ثلاثة أجزاء، ويوجد القسم المخصص للمتنبي في الجزء الثالث منه. وقد اختار الكاتب ثماني قصائد من شعر المتنبي نشر ترجمتها[1] مع النص العربي،[2] ثم ألحقها بشروح ونقدات وتعليقات وافية، ونظرات لغوية وتاريخية وأدبية مع عرض لجهود السابقين من المستشرقين الذي اشتغلوا بالمتنبي وشعره.[3]

٢ ـ دولاكرانج GRANGERET DE LAGRANGE (١٧٩٠ ـ ١٨٥٩) وقد دأب هذا المستشرق، وهو من تلاميذ دوساسي، على ترجمة ونشر بعض شعر المتنبي، مع بعض التعليقات والنظرات النقدية منذ ١٨٢٢، في (المجلة الآسيوية) JOURNAL ASIATIQUE وفي عام ١٨٢٨ جمع أعماله تلك وأضاف اليها وأصدرها في كتاب (المختارات العربية)[4]، وجعل لها كاستاذه، عنواناً عربياً هو التالي:

«نخب الأزهار في منتخبات الأشعار، وأزكى الرياحين من أسنى الدواوين».

وقد مهد دولاكرانج لمختاراته بنبذة عن سيرة المتنبي، مقتبسة عن ابن خلكان[5]، ثم ألحقها بترجمة لقصائد المتنبي: ثلاث منها في فاتك أبي شجاع والرابعة في دلير بن لشكروّز[6]. وعقد بعد ذلك قسماً للتعليقات والشروح[7]، مع نشر الأصل العربي[8].

ولا بأس من الاشارة هنا إلى أنه كانت لهذا المستشرق شخصيته المستقلة، ونظرته المتميزة، وهو ـ بصفة عامة ـ يمتاز بنوع من الاعتدال، وتجنب الاحكام المطلقة. هذا وقد ظلت ترجمته معتمدة عند كثير ممن جاء بعده[9].

٣ ـ شلومبرجر Gustave Schlumberger (١٨٤٤ ـ ١٩٢٩) لم يعرض هذا المستشرق

---

(١) ص. ص ١ـ ٢٦.

(٢) ص. ص. ٢ ـ ٣٩ من القسم العربي.

(٣) ص. ص ٢٧ ـ ٨٠.

(٤) Anthologie arabe, ou choix de poésies arabes inedites paris, 1828

(٥) ص. ص ١ ـ ٢.

(٦) ص. ص ٢ ـ ٢٤. وقدر ورد خطأ في (رائد الدراسة) ص. ٣٨٠: أنها في ص (١ ـ ٤٢).

(٧) ص. ص ١٠١ ـ ١١٧.

(٨) ص. ص. ١ ـ ٤٣ من القسم العربي.

(٩) انظر على سبيل المثال: Armand Kahn; La litterature arabe (70-165)-ed. Louis Michaud-Paris

لأبي الطيب في دراسة خاصة، إلاّ أن كتابه القيم (امبراطور بيزنطي من القرن العاشر: نقفور فوكاس)[1] يعرض لأهم فترة من فترات الاحتكاك الحربي بين العالم الإسلامي وبيزنطة (القرن العاشر الميلادي ـ الرابع الهجري)، وهي أهم فترة في حياة أبي الطيب، آن وجوده في بلاط سيف الدولة. وهكذا كان الحديث عن نقفور يفضي الى الحديث عن خصمه اللدود سيف الدولة، وكان الحديث عن الأمير العربي المسلم ينتهي الى الحديث عن شاعره أبي الطيب المتنبي، ولذلك كان الكاتب كثيراً ما يقف، في مواطن مختلفة من كتابة ليعرض للمتنبي وشعره الذي كان سجلاً لتلك الأحداث الحاسمة في حياة الدولتين الإسلامية والبيزنطية.

وقد أبرز لنا هذا المستشرق القيمة التاريخية لشعر أبي الطيب، كما قدم لنا عن سيف الدولة صورة مباينة لتلك التي سيقدمها لنا من بعده زمرة من المستشرقين. كما كانت لهذا الكاتب أحكام نقدية حول شعر أبي الطيب، وربما تعقب بعض الدارسين لأبي الطيب، كتعقيبه على هامر في ترجمته الكاملة، لديوان الشاعر[2].

وهكذا يتبين كيف يمكن للكتب التاريخية المتعلقة بالقرن الرابع الهجري أن تسهم في جلاء صورة أبي الطيب.

هذا ويمكن أن ندخل في هذا السياق كتابات كنار Marius Canard (المولود عام ١٨٨٨)، الذي اهتم بحياة سيف الدولة خاصة وتاريخ الحمدانيين عامة.[3]

٤ ـ ماسينيون Louis-Massignon (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢) اذا كان ماسينيون قد عرض في جملة من أبحاثه ودراساته لأبي الطيب بالاشارة العابرة أحياناً، لقد كان له الأثر في الدراسات المتنبئية، ولا سيما حين أعلن عام ١٩٣٥م، في مؤتمر المستشرقين التاسع عشر بروما عن (عناصر اسماعيلية في شعر المتنبي).[4] ثم نشر في العام التالي مقالاً

---

(١) Un empereur by zantin au X siécle: Nicéphore phocas-Paris-1890

(٢) ص. ص ١٢٥ ـ ١٢٦.

(٣) انظر على سبيل المثال كتابيه : Histoire de la dynastie des

-SAYF AL-DAULA-éd-Alger 1934- Hamdanides de Jazira et de syrie. T. I, Alger 1951

وكذلك بحثه عن (المتنبي والحرب البيزنطية ـ العربية) ـ القيمة التاريخية لاشعاره.

Mutanabbi et la guerre byzantino-arabe: Intérét historique de ses poésies.

("Al-Mutanabbi: Recueil publié à l'occasion de son Millénaire" Beyrouth 1936, PP 99-114)

(٤) Eléments ismaeliéns dans la poétique d Al-Mutanabbi (19 th congr. int. or. 1935, Roma-PP. 527-528)

موسعاً بعنوان: (المتنبي أمام العصر الاسماعيلي للاسلام)[1] مؤكداً بذلك أطروحته عن باطنية المتنبي، وصلته بالقرامطة.

وإذا كان بلاشير ـ كما سنرى ـ قد سبق ماسينيون إلى الاعلان عن صلات أبي الطيب الباطنية،[2] فانه ظل متأرجحاً في ذلك بين النفي والاثبات، على عكس ماسينيون الذي أصدر في ذلك حكما قاطعاً.

وقد بلغ من أثر هذه الفكرة أن سرت في النقد العربي سريان النار في الهشيم حتى أصبحت عند كثير من الدارسين أمراً لا يقبل الجدل.

وقد اجتهدنا في أن نبحث عن أصول الفكرة الباطنية، وأن نربطها بالمنظومة الفكرية العامة لماسينيون، وأن نناقش الحجج التي بنى عليها حكمه، مناقشة تستند إلى نصوص ذات دلالات قطعية.

٥ ـ بلاشير Régis Blachére (١٩٠٠ ـ ١٩٧٨) وهو أكبر مستشرق شغل بالمتنبي، ونذر له شطراً كبيراً من عمره، فخصه بجملة من الدراسات التي توجت بأطروحته التي تقدم بها عام ١٩٣٥، عن المتنبي.[3]

وتمتاز هذه الدراسة، فيما نرى، بأمرين اثنين:

١ ـ الشمول: فقد كان صاحبها حريصاً على أن يقدم لنا دراسة وافية عن الشاعر الكوفي، فقسم دراسته الى قسمين كبيرين:

القسم الأول: وعنوانه (حياة المتنبي وديوانه).[4] وفيه تتبع حياة الشاعر منذ الطفولة وسنوات التكوين في الكوفة حتى مصرعه، بعد عودته من فارس، عند دير العاقول متتبعاً شعر الرجل أيضاً، بحسب مراحله التاريخية، رابطاً بين ذلك الشعر وما صحبه من وقائع وأحداث.

---

(١) Mutanabbi devant le siécle ismaélien de l'Islam. ("Al-Mutanabbi: Recueil publié à l'occasion de son millénaire" Beyrouth 1936, PP. 1-17)

(٢) ظهر ذلك في بحث له صدر عام ١٩٢٩م بعنوان:

Le poéte arabe al- Motanabbi et l'occident Musulman (Revue des études Islamiques "Vol". III, Paris, 1929, P. 128)

(٣) راجع ص. ١١ من هذا البحث.

(٤) Vie et oeuvre d ábout-Tayyib al Motanabbi (Un poéte arabe, PP. 21-262)

القسم الثاني: وعنوانه (ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين)[1]، وقد استعرض من خلاله في صبر كبير، أهم ما كتب عن المتنبي، قديماً وحديثاً، في العربية وعند المستشرقين.

٢ ـ الأمر الثاني هو الجرأة في طرح القضايا الشائكة وفي إصدار الأحكام. لقد وضع الدارس أصل المتنبي ونسبة وعقيدته وثورته على محكّ البحث، كما ناقش في جرأة ـ تصل حد الاندفاع في بعض الأحيان شاعرية المتنبي ومنزلته التي حظي بها عند العرب.

على أن هذه الجرأة لم تكن تسلم من مخاطر المغامرات، ومزلة التهور أحياناً، فكثر عند بلاشير أسلوب الاحتمال الذي كان يقوم أساساً لأحكام جازمة، كما سنعرض لذلك في موضعه من هذا البحث.

٦ ـ لعل أندريه ميكال Andre Miquel (المولود عام ١٩٢٩) أكثر المستعربين قدرة على تجاوز الطروح العتيقة للاستشراق.

إن نظراته حول المتنبي مبثوثة في جملة من مؤلفاته[2] ولكن بحثه المركز (المتنبي شاعر عربي: بعض التأملات)[3] دال على فهم جديد ومحاولة جادة من أجل التخلص من الأحكام الجاهزة.

لقد كان لسيرف مثلاً Jean Lecerf (١٨٩٤ ـ ١٩٨٠) يقف عند ارتفاع النبرة العربية في شعر المتنبي، فلا يرى فيها غير نوع من «العرقية» التي كانت تسيطر على المتنبي، وتوجه مواقفه وسلوكه في الحياة وتحدد نظرته الى الناس، وهو أمر وافقه عليه معظم المستشرقين، وحين أراد بعض الدارسين العرب التخفيف من حدة هذه الرؤية، استبدل بكلمة (العرقية) كلمة اخرى هي (القومية).

---

(١) L'ouvre d'al-Motanabbi dans le monde "arabe" et chez les Orientalistes. (Ibid, PP. 263-339).

(٢) على سبيل المثال: ـ الادب العربي: La littérature arabe الصادر في سلسلة (Que sais-je 1355) وقد نقله الى العربية رفيق بن وناس صالح حيزم ـ الطيب العشاش ـ وصدر عن الشركة التونسية لفنون الرسم ـ ١٤٠٠/ ١٩٨٠ ـ الإسلام وحضارته L'Islam et sa sivilisation الصادر عن دار (A. Collin) بباريس ـ وقد نقلته الى العربية زينب عبد العزيز وصدر عن منشورات المكتبة العصرية، بيروت.

(٣) بحث شارك به في مهرجان المتنبي ببغداد ـ تشرين الثاني ١٩٧٧م وقد نشر في مجلات عدة. وقد اعتمدنا الكتاب الذي ضم وقائع المهرجان، واصدرته وزارة الثقافة والاعلام بالعراق عام ١٩٧٩ بعنوان (المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس). ويقع البحث المذكور ما بين: ص ٢٢٥ ـ ص ٢٤١.

ان أ. ميكال لا يستنكر هذه الكلمة الجديدة: Nationalisme وربما كان على لسيرف، في رأيه، أن يستعملها لولا أنه أخطأ الهدف[1]. بيد أن ميكال لا يقف عند هذا الحد بل هو يسعى الى ابراز ما لأبي الطيب من دور ريادي داخل حضارة بدأ يشهد انهيارها هي (الحضارة العربية الإسلامية). ان «العربية» ليست ذات دلالة عرقية قط، لأنها داخل الحضارة العربية الإسلامية ـ ليست وقفاً على العرب دون غيرهم من الأجناس المنضوية تحت تلك الحضارة، والمكونة لها. انها اذاً ذات بعد حضاري.

كان هناك بالاضافة الى المصارد الفرنسية بعض المصادر الأجنبية الأخرى التي كان الرجوع اليها يسهم في جلو الصورة، منها:

ـ كتاب الألماني رايسكه J. J. Reiske (١٧١٦ ـ ١٧٧٤) (مختارات من الشعر العربي: غزليات ومراث من ديوان المتنبي)[2] وتنبع قيمة عمل رايسكه من أنه من أقدم ما ألف في أوروبا عن المتنبي، ومن كونه تضمن ـ بالاضافة الى ترجمة قدر صالح من شعر المتنبي ـ أحكاماً نقدية خطيرة عن المتنبي خاصة، وعن الذوق الأدبي عند العرب عامة، سرت من بعد الى بعض فطاحل الاستشراق الفرنسي.

ـ كتاب النمساوي هامر Joseph Von Hammer (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦) (المتنبي شاعر العربية الأكبر)[3]. وقد تضمن ترجمة كاملة بالألمانية لديوان المتنبي، وهي الترجمة الكاملة الوحيدة، وقد تصدرت الترجمة مقدمة عن حياة المتنبي وشعره.

- ٤ -

ان مما درج عليه كثير من الدارسين حين تناول أديب ما بالدراسة أن يعرضوا لمحيطه العام المتمثل في الزمان والمكان، وما يفور داخله من قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية، وربما تناولوا أصل الأديب وجنسه، أن كانوا من الذين

---

(١) مراسلة خاصة مؤرخة ب ٧ يناير ١٩٨٦.

(٢) Proben der arabischen Dichtkunts, in verliebten und traugen gedichten aus Dem Motanabbi, Leipzig 1765.

(٣) Moteanabbi, Der gröáste arabische Dichter. Wieen 1824.

يقولون بمنهج الناقد الفرنسي تين Hippolyte Taine (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣م)، أو بما ذهب اليه من قبل أبو عمرو الجاحظ (ـ ٢٥٥هـ)[١]. وربما وسع بعضهم على نفسه فساغ له الحديث عن الجذور البعيدة التي ساعدت في تشكيل الوجدان النفسي والثقافي للأديب المدروس.

اما أن يصبح أديب ما، منطلقاً لمعالجة كل ما يمس أمته وحضارته وعصره فأمر لا نكاد نجده الاّ عند الاستشراق في اقباله على المتنبي. وهكذا تشعبت القضايا، وتشعب بتشعبها مجال البحث، ومصادره أيضاً.

ولقد كان تناول تلك القضايا والبحث عن جذورها والتنقيب بين أدغالها، وكشف خباياها، تفسيراً وتقويماً، مما تفرضه طبيعة هذا البحث. وقد يبدو أن الاحاطة بذلك كله عزيزة في بحث محدود، بيد أن ذلك لن يعفينا من تناول أهم تلك القضايا وأكثرها قدرة، فيما نرى على جلو الرؤية الاستشراقية ومنهجها، نموذجاً يمكن أن يقاس عليه ما سكتنا عنه منها.

ولما كانت القضايا المطروحة، تنطلق ـ في الدراسات الاستشراقية ـ من شعر الشاعر، وترتكز على المفهوم الاستشراقي للشعر، رأينا أن نمهد للدراسة بحديث نتناول فيه مفهوم الشعر وطبيعته، كما حده الاستشراق، موازنين في عجالة بينه وبين مفهوم الشعر عند العرب باعتبار المتنبي ـ موضوع الدرس ـ ينتمي الى مجال حضاري عربي يختلف بطبيعته عن المجال الحضاري الاستشراقي. وقد قسمنا الباب الأول الى فصلين، تناولنا في الفصل الأول حدود الاستشراق مبينين موقع الاستشراق الفرنسي خاصة من المؤسسة الاستشراقية.

وعرضنا في الفصل الثاني من هذا الباب لأسباب العناية بالادب، كما عرضنا فيه مظاهر العناية بديوان المتنبي، في أوروبا عامة، وفرنسا خاصة.

ولئن كنا قد درجنا، في هذا الباب خصوصاً، على توسيع الشقة أحياناً ليشمل الحديث الاستشراق الأوروبي، فلكي تزداد بياناً مكانة الاستشراق الفرنسي، وجهود

---

(١) الحيوان: تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت. ط ٣ ـ ١٣٨٨ ـ ١٩٦٩ ـ ج ٤ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

المستشرقين الفرنسيين في العناية بالمتنبي.

وأما الباب الثاني فقد خصصناه للقضايا الموضوعية. وقد تناول الفصل الأول قضية النسب، وهي قضية ليست جديدة، أراد الاستشراق أن يضيف اليها خطوطاً جديدة، عرضناها وناقشناها قابلين من الأحكام ما ظنناه الحق، أو قريباً منه مطرحين ما سواه.

وثورة المتنبي مما شغل الدارسين أيضاً، قديماً وحديثاً، وهي قضية لم يرد لها أصحابها أن تقف عند الحدود السياسية حتى تصير سلماً الى الحديث عن معتقد أبي الطيب، في عصر تصارعت فيه المعتقدات والمذاهب والآراء. وسنرى كيف حاول بعض المستشرقين التماس تفسير جديد لهذه الثورة، بأن جعل لها أصولاً اسماعيلية، وقد حاولنا كشف البواعث الكامنة وراء هذا التفسير.

ولما عرض المستشرقون لكل ما له صلة بالمتنبي، من أشخاص وأحداث، كان لها كبير الأثر في العلاقات العربية البيزنطية، كان لا بد من أن تحتل صورة سيف الدولة مكاناً بارزاً في دراساتهم، ولذلك رأينا أن نعرض لهذه الصورة، مجتهدين أن نقارن بينها، وبين الصورة التي رسمها للأمير الحمداني المؤرخون العرب وتلك التي رسمها شاعره المتنبي، محاولين تحديد أقربها مطابقة للواقع التاريخي، وقد خصصنا لهذه القضية الفصل الثالث من الباب الثاني.

وأما الفصل الرابع منه فقد تناولنا فيه قضية العروبة. ان بصر قارىء المتنبي لا يخطئه ما تعلوه من نبرات العروبة. فكيف نفسر ذلك؟ أكان أبو الطيب عرقياً، كما ذهب الى ذلك بعضهم؟ أكان عربياً متعصباً لعروبته وعربيّته الى درجة الحقد على من سوى العرب؟ أم كان يفهم «العروبة» فهما خاصاً به، لا ينسجم مع الاسقاطات التي أريد أن تنالـه؟ أسئلة أرقت الاستشراق، قبل أن تتسرب الى النقد العربي فتشغل أصحابه زمناً طويلاً. ولم يكن المستشرقين منها على اتفاق، كما سنرى.

ثم جعلنا الباب الثالث للقضايا الفنية. واذا كانت القضايا الموضوعية تساعدنا على فهم المنهج الاستشراقي في معالجة القضايا التاريخية والاجتماعية، فان القضايا الفنية تتيح لنا أن نقيس الذوق الأدبي الاستشراقي، وقدرته على النفاذ الى كنوز لغة

أخرى غير لغته. ليس غريباً أن ينقسم المستشرقون، حول هذه القضايا، طرائق قدداً، فقد طالما وقف الدارسون العرب منها على طرفي نقيض فمن مادح منتصر لا يرى لأبي الطيب عيباً، ولا يرى في شعره مغمزاً، ومن قادح منتقص لا يرى له مزية، ولا يرى لشعره حسنا. ولعل الأمر كان مفهوماً في حياة المتنبي وبعيد وفاته، اذ أن الخصومة لم تقف آنذاك عند حدود الشعر وانما كانت حول شخص الشاعر نفسه ولكن الأمر قد يبدو مستعصياً على الفهم حين نجد ناقداً عربياً فذاً من نقادنا المحدثين يعلن في وضوح كاشف أن المتنبي بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسه منزلة الحب أو الايثار، وأنه حين أقبل على استصحاب المتنبي أقبل على كره منه[1]. فما بواعث الخلاف بين المستشرقين حول المتنبي؟ أهي بواعث فنية خالصة، أم أنها خضعت لاعتبارات خارج دائرة الفن؟ للاجابة عن ذلك خصصنا فصول هذا الباب لمجموعة من القضايا. وكانت القضية الأولى تتعلق بالتحقيق والتوثيق، وكشفنا من خلالها جهود الاستشراق في اخراج النص ونشره، أو في محاولة قراءته قراءة سليمة، قبل دراسته والحكم عليه، أو في المفاضلة بين بعض الشروح أو في صحة نسبة بعضها الى أصحابها.

وأما الفصل الثاني المتعلق بالدراسة الفنية والذوق الأدبي فقد قسمناه مباحث كالتالي:

١ ـ التذوق الأدبي.
٢ ـ بناء القصيدة.
٣ ـ الايقاع.
٤ ـ السرقات.

وأما الفصل الثالث فخصصناه للحديث عن شعر أبي الطيب (بين الفن والتاريخ): أين تكمن قيمة المتنبي؟ أهي قيمة فنية أم تاريخية؟ والى أي حد كان الشاعر صادقاً في تسجيل الأحداث التاريخية وتصويرها؟ وهل يمكن تبعاً لذلك اعتبار شعره مصدراً أساسياً من مصادر التاريخ؟ تلك أسئلة عالجناها انطلاقاً من شعر الشاعر

---

(١) طه حسين: مع المتنبي. ٩.

أولاً، ومن خلال الطرح الاستشراقي ثانياً.

ولما كان الاستشراق ولوعاً بعقد مقارنات بين المتنبي وبين غيره من شعراء الشرق (عرباً وفرساً) في معظم الأحيان، وبينه وبين بعض شعراء الغرب في بعض الأحيان، رأينا أن نولي هذا الموضوع ما يستحق من عناية ونخصص له الفصل الرابع، من أجل كشف بواعث المقارنة ومنهجها ونتائجها.

وبعد هذا كله كان لا بد من الكشف عن المنهج الاستشراقي، وقد خصصناه بباب كامل، وهو الباب الرابع. وقد ذهبنا نتساءل أولاً: المنهج الاستشراقي منهج واحد أم مناهج متعددة؟ وتتصل المناهج بالرؤية، ولعلها صادرة عنها: أو كانت الرؤية الاستشراقية واحدة، رغم الامتداد الزمني؟ لقد كانت الأجابة عن هذه الاسئلة تقتضي تتبع الاستشراق في مراحله المختلفة، وعلى هذا الأساس تحدثنا في الفصل الأول عن المنهج الفيولولوجي(= اللغوي؟) الذي سيطر على مستشرقي القرن التاسع عشر خاصة، كما تحدثنا في الفصل الثاني عما يمكن تسميته المنهج الباطني عند ماسينيون. وخصصنا الفصل الثالث للمنهج الاحتمالي عند بلاشير، ثم عرضنا في الفصل الرابع لما يمكن أن يكون قد أصاب المنهج الاستشراقي من تطور من بعد بلاشير.

ولما كان الأثر متبادل بين الدراسات الاستشراقية وبين الدراسات العربيةبحثنا، هذا الأمر في الفصل الخامس مرجعين بعض الآراء ـ الاستشراقية الى أصول عربية، أريد لها أن تكون مهملة، مبيّنين في الوقت ذاته سلطان الاستشراق على بعض الدراسات العربية.

وأما الفصل الأخير فقد عالجنا فيه موضوع (الاستشراق بين العلم والايديولوجيا) مبينين كيف كان التجرد العلمي يساعد قلة من المستشرقين على تجاوز الرؤية الاستشراقية المقيدة التي ظلت أسيرة ثنائية الشرق والغرب، جاعلة من الغرب وحده مصدر كل اشعاع حضاري عبر العصور. كما بينا كيف كانت الايديولوجيا، على العكس من ذلك، تتسرب بظلالها الثخينة الى بعض الجهود الكبيرة، فتسيء اليها وتجردها من مصداقيتها العلمية.

وانهينا الحديث بخاتمة حاولنا فيها استخلاص بعض النتائج المتعلقة بالاستشراق والمتنبي على السواء، مثيرين جملة من الاسئلة التي نراها ما تزال بحاجة الى الدرس،

مؤكـدين أن مدار حياة أبي الطيب كان مواجهة الانهيار الحضاري الذي كان يشهد بداياته في القرن الرابع.

- ٥ -

تظل قضية المنهج قضية أساسية في كل بحث، ويرتبط المنهج، فيما أتصور. بالهـدف. وقـد كان مما يطمح اليه هذا البحث تجاوز الأحكام الجاهزة، وأسلوب المماحكة الجدالية، الباحث عن انتصار مزعوم، الى مساءلة الخطاب الاستشراقي، قصد الكشف عن آلياته ومقوماته الأساسية وبنيته الداخلية، مستعيناً بالمبدأ الخالد: ﴿ولا يجرمنكـم شنآن قوم على الا تعدلوا. اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[١]

ونحن نسلم أنه (لا يمكن فصل المنهج عن المضمون، كما أنه لا يمكن ممارسة نقد قبلي، أي نقد سابق على المعرفة)[٢] ومن هنا كان من الطبيعي الا تكون مساءلة الخطاب الاستشراقي مثمرة، ما بقيت خارج بنية ذلك الخطاب ذاته. انني لا أزعم أن هذا البحث يرمي الى تدمير الخطاب الاستشراقي، ولكن المساءلة البناءة لا تتم الا بانتهاك ذلك الخطاب.

ان طبيعة هذا البحث تفرض أن تكون الدراسة تحليلية نقدية، لأنها تدخل في نطاق (نقد النقد) الذي يستطيع وحده أن يؤمن أساس النقد الحقيقي[٣]. وان الخطوة الأولى في (نقد النقد) فهم طبيعة العمل الأدبي أولاً، وفهم رسالة النقد ومهمته ثانياً: ان العملية اذن مزدوجة.

وان الصعـوبـة ـ بالنسبـة لهـذا البحث ـ تكمن في أن الموضوع يمسّ مجالين حضـاريين مختلفين هما مجال الحضارة الشرقية (العمل الأدبي = المتنبي) ومجال الحضارة الغربية (النقد = الاستشراق). وان الموضوعية تقتضي اتباع منهج واحد في التعامل مع كلا المجالين.

---

(١) المائدة: ٨.

(٢) عباس الجراري: الادب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. الجزء الأول، مطبعة المعارف ـ ط٣ ـ ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦. ص. ٩.

(٣) كاروني وفيللو: النقد الادبي ـ ترجمة كيتي سالم منشورات عويدات ـ بيروت، باريس ـ ط ٢ ـ ١٩٨٠. ص ١٥٦.

ان الوصف قد يكون ـ في مرحلة ما ـ سبيلاً الى كشف الخيوط المكونة لنسيج الأثر المدروس، بيد أنه قد يكون قاصراً، اذا نحن لم نستعن بأدوات اخرى لبلوغ الهدف، (يقال دائماً بأن الأوصاف تجعلنا نرى. واعتقد أنها لا ترينا أي شيء مطلقاً. انها ذات طبيعة عقلية خالصة intelligible ، ومن ثمة فهي متنافرة مع كل تصويرية لا تعمل الا على أرباكها وتشويهها)[1]

ومع ذلك فليس هذا باعثاً لاستبعاد الوصف. ذلك أنه (من أجل هدم الوصف، هناك سبل اخرى غير الاستبعاد، ان الطبيعة الثورية للكتابة ليست في الاستبعاد ولكن في الانتهاك. والحالة هذه ان الانتهاك اعتراف وقلب معاً. ينبغي تقديم الشيء المراد تحطيمه وانكاره في الوقت ذاته. ان الكتابة هي التي تتيح بالتدقيق، هذا التناقض المنطقي)[2].

وهكذا، فلن يكون من مرادنا استحضار الأحكام المسبقة، واستبعاد النصوص، بل المراد استنطاق النصوص نفسها سواء منها النص المدروس (العمل الأدبي = المتنبي) والنص الدارس (النقد = الاستشراق)، محاولين استخراج ما تسعف به تلك النصوص في ذاتها، دون تحمليها ما لا تطيق. وبعبارة بلانشو Blanchot : لن نفعل شيئاً سوى أن نتيح لعمق النتائج أن يتكلم [3] وآنذاك نستطيع استخلاص النتائج التي تبدو لنا يقينية، أو مرجحة ان نحن لم نستطع الجزم بيقينها.[4]

---

(١) Entretien avec R. Barthes, in: R. Bellour: Le livre des autres. 10/18. Paris. 1978 PP. 58-59

(٢) Ibid. P. 60

(٣) من كتاب بلانشو: Lautréamont et sade نقلها تودوروف في (نقد النقد). ترجمة سامي سويدان ـ منشورات مركز الاتحاد القومي بيروت: ط ١ ـ ١٩٨٥ ـ ص. ٦٣.

(٤) ان القطع واليقين ليس ميسوراً في كل الأحوال، ولا بد من الترجيح المبني، لا على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً، بل على مقدمات نعتقد صحتها. واذا كان ديكارت R. Descartes (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) يقول على سبيل المثال: «إنني اعتبر كل ما ليس إلا راجحاً يكاد يكون باطلاً» (مقال في المنهج: ١٧٣) فانه قد اضطر في نفس البحث الى الترجيح فقال: (لم أتخير من بين الآراء الكثيرة المقبولة على سواء، الآ الاكثر اعتدالاً وذلك لأنها أيسر في العمل، ويرجح أن تكون هي، الاحسن، اذ أن كل افراط من شأنه أن يكون سيئاً). نفسه ٢٠٠.

وقال: (انه اذا لم يكن في استطاعتنا تمييز أصح الآراء، فان الواجب علينا اتباع اكثرها رجحانا). نفسه: ٢٠٧. ترجمة محمود محمد خضيري ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب. الطبعة الثالثة ـ ١٩٨٥.

=

وقد رأينا اتباع منهج نابع من طبيعة البحث المتصل، كما رأينا، بمجالين حضاريين مختلفين، واقترحنا له اسم (المنهج الحضاري)، وهو منهج مفتوح على المناهج الأخرى مع الاستناد الى جملة من القواعد يمكن تركيزها في ثلاث:

١ ـ المجال الحضاري.
٢ ـ اللحظة الحضارية.
٣ ـ الرسالة الجمالية.

المجال الحضاري: ونعني به المحيط العام الذي ينتمي اليه النص، موصولاً بالخصائص الجوهرية لذلك المحيط. فهو بالنسبة للمتنبي مجال الحضارة العربية ـ الإسلامية، وهو بالنسبة للاستشراق مجال الحضارة الغربية. ويتكون كل مجال حضاري من عناصر ثابتة وعناصر متغيرة.

وتنقسم العناصر الثابتة الى قسمين:

= أ ـ العناصر الثابتة الكبرى أو العامة: وهي العناصر المرتبطة بانسانية الانسان، مما يجعلها عناصر مشتركة بين كل الحضارات انطلاقاً من الحقيقة الثابتة التي تكشف عن فطرة انسانية واحدة ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾[1] وهذا أول ما يكسب المنهج شموليته وانسانيته، وتجاوزه لكل رؤية ضيقة محدودة.

ب ـ العناصر الثابتة الصغرى، أو الخاصة: وهي العناصر المرتبطة بمجال حضاري معين، لا تكاد تتعداه. ولا نريد أن نقول هنا بالتفسير العرقي، الذي يجعل لكل شعب خصائص جوهرية ثابتة، ولكننا نقول ان لكل حضارة (وإن تعددت شعوبها واجناسها) قيماً ثابتة ومكونات جوهرية. وهكذا نستطيع أن نبحث عن هذه العناصر بالنسبة لمجال الحضارة العربية الإسلامية، انطلاقاً من بعض القيم والمبادىء التي وجدت في العصر الجاهلي، ثم ثبتها الإسلام، ومن القيم والمبادىء التي أضافها الإسلام فصارت شيئاً ثابتاً لا يقبل التغيير والتبديل.

وليتضح الفرق بين العناصر الثابتة الكبرى والصغرى، نأتي بهذا المثال: عندما نقول (فلان يرتكب الشر = الحرام) يكون التعبير ذا دلالة عامة أي أنه يفهم من خلال العناصر الثابتة الكبرى. فالشر، بمفهومه العام، مرفوض من كل الحضارات. أما

(١) الروم: ٣٠.

عندما نقول (فلان يأكل الربا) فأن التعبير يصبح وقد اكتسب سمة خصوصية، فالربا شر، في اطار ثابت، ولكن داخل حس حضاري معين، هو الحس الإسلامي.

وأما العناصر المتغيرة، فهي تلك التي قد تتعرض للتحويل والتبديل، من غير أن يمس ذلك الجوهر، أو بعبارة اخرى، من غير أن يعارض ذلك العناصر الثابتة، وهذه العناصر تجعل المجال الحضاري مفتوحاً غير مغلق، متحركاً غير ثابت، وفيها سعة.

اللحظة الحضارية: اننا ـ عند تناول حسان بن ثابت والمتنبي وشوقي ـ نتناول شعراء ينتمون الى مجال حضاري واحد، ولا يتأتى فهمهم فهماً سليماً الا اذا كنا على فهم عميق وصحيح للعناصر الثابتة والعناصر المتغيرة لذلك المجال. بيد أن هؤلاء الشعراء ينتمون الى ثلاث لحظات حضارية متباينة.

فاللحظة الحضارية التي عرفها القرن الأول تختلف عن اللحظتين الحضاريتين التاليتين: القرن الرابع والقرن الرابع عشر. اننا نكون اذن أمام ثلاث لحظات حضارية مختلفة، تنتمي كلها الى مجال حضاري واحد. وهكذا يمكننا أن نبحث عن أوجه الخلاف بين هذه اللحظات الثلاث، كأن نقول مثلاً، ان اللحظة الحضارية الأولى شهدت انفجار مد حضاري جديد، وانبثاق أمة تتقدم لتتسلم زمام الحضارة الانسانية.

أما اللحظة الحضارية الثانية (القرن الرابع) فهي لحظة حضارية عرفت فيها الأمة ابتلاءات شتى، أدت الى بداية انهيار حضاري كبير، شهدت عليه آثار شتى، منها ضعف الخلافة المركزية وبداية التسلط الأعجمي لا باعتباره مكوناً من مكونات الأمة، كما كان من قبل، ولكن باعتباره ـ حاملاً احيائياً، يسعى الى زعزعة كيان حضاري مماثل ليحل محلة (جينات) جاهلية تعود الى ساسان، وغير ساسان.. ومنها انطلاق رياح مدمرة تمثلت في الحركات الباطنية التي كانت عاملاً مؤازراً للحركة الأولى فهي لحظة حضارية مضطربة سيكون أبو الطيب خير معبر عنها، مجنداً نفسه بالسيف والقلم، للتصدي للانهيار الحضاري، وهكذا...

الرسالة الجمالية: وهي نابعة من طبيعة المجال المدروس: الأدب. ان الأدب لا يمكن أن يسمى كذلك ما لم يكن ذا رسالة جمالية. ولكن هذه الرسالة الجمالية قابلة للتطور والتحول والتعدد تبعاً لتعدد اللحظات الحضارية، الا أن تمتلك عناصر ثابتة أيضاً، باعتبارها منتمية الى مجال حضاري معين. اننا لا نقول ما قاله بعض الباحثين: «لا ينبغي للكلمات أن تصلح لتعيين شيء ما، أو اتاحة التعبير لأحد،

ولكنهـا لها غاياتها في ذواتها نفسها»[1]، ولكننا نقول، حسب المنهج المقترح، ان الجمـال ليس تجزيئياً، بل هو جمال متكامل، لا يقصر الجمال على الشكل دون المضمون. ان الجمال الحق لا يتحقق، في النص الأدبي، وفي غير النص الأدبي، ما لم يسهم في تجسيده الشكل والمضمون معاً. ونرى أن نزيد موضوع المنهج بعض بيان فنقول:

ان شعر الشاعر يظل القول الفصل في كل ما يتعلق به ولذلك فنحن لا نستطيع الحديث، مثلاً، عن شخصية المتنبي بمنهج قويم ما لم نحتكم الى شعره. ولكن طبيعة النص ومكوناته تدل على أن النص ليس عالماً مغلقاً على ذاته، بل هو منفتح على مكـونـاتـه الأساسية المستمدة من المحيط المتصل بالحال والزمان والمكان، وبذلك يكون النص معطى حضارياً.

والشاعر الفذ هو الذي ينطوي شعره على المكونات الحضارية لأمته. وكلما قلت استجابة الشاعر لتلك المكونات قل حظه من الشعر. فكيف اذا تعلق الأمر بأبي الطيب المتنبي، الضمير الحي، الجهير الصوت، للأمة العربية؟.

النص انبثاق وتجل.

انبثاق من النفس ومن الآفاق، وانبثاق من الرغبة في فهم الواقع من أجل تطهيره، أو من الـرغبـة في امتـلاك الواقع عن طريق الهدم والبناء، والتدمير والانشاء، بواسطة (ارجاع السلطة للكلمات)[2].

والنص لا يقوم برسالته من خارج التاريخ، ولذلك فهو في الوقت الذي يسعى فيه الى الاسهام في دفع عجلة التاريخ قدماً، يظل مرتبطاً بقوانين التاريخ وسنن الكون، ومن هنا يكون فهم النص خارج هذا الاطار قتلاً للنص.

والنص تجل في الذات. ولكن الذات ذوات. وهناك ذات المبدع أولاً، ولكن اكتمال النص لا يتيسر الا في ذات أخرى، هي ذات المتلقي. وبين الذات الأولى والذات الأخرى عوالم.

ان النص لا يمتنع عن تعدد القراءات، الا أنه يرفض أن يصبح سلاحاً ضد ذاته،

---

(١) Blanchot: L'espace littéraire, 1955 P. 34

نقلها تودروف في (نقد النقد) ص. ٦٠ من الترجمة العربية.

(٢) J. L. Joubert: La poésie-éd. Armand Colin Gallimard-Paris-1977 P. 20.

لان الأدب مسؤول، ولا يمكن أن تنتفي هذه المسؤولية بالتفسير العابث أو المنحرف.

اننا نقرأ ما يقول ياكبسون: (اذا نحن حملنا الشاعر مسؤولية الأفكار والعواطف، كان ذلك عبثاً، كما كان موقف جمهور العصر الوسيط يوسع ضرباً الممثل الذي كان يقوم بدور «يهوذا» وكما يمكن أن يكون اذا نحن اتهمنا بوشكين بقتل لنسكي)[1] فنتساءل عن العلاقة بين النص وصاحبه. فاذا نحن فهمنا منه انتفاء المسؤولية وسقوط الغاية، كان ذلك تجنياً، فنحن لا نتهم بوشكين بقتل لنسكي، كما لا نتهم شكسبير بقتل عطيل وديدمونة، ولكننا لا نعفي هذا ولا ذاك من التصور العام الذي يتجه نحوه النص، ويظل النص في كلتا الحالتين رؤية حضارية لا تنسلخ عن العناصر المكونة لجوهر الحضارة التي تنطلق منها، وتسبح في فضائها، ولذلك لاحظ مالك بن نبي، بالنسبة لخاتمة عطيل المأساوية أن الدائرة التي يعيشها المتفرج الأوروبي في تلك اللحظة دائرة جمالية، اذ يرى كائنين عجيبين ينتهيان، بينهما يظل انفعال المتفرج المسلم هادئاً في هذا المشهد، لأن دائرته أخلاقية، فهو يرى قاتلاً ومنتحراً[2].

واذا كان من المؤكد (أن قراءتين لكتاب واحد لا يمكن أبداً أن تكونا متشابهتين)[3] فانه لا بد من وجود قواعد مشتركة تجعل الاختلاف لا يعني التضاد، ذلك بأننا اذا نحن سلمنا بأن (الشعر هو اللغة في وظيفتها الجمالية)[4] ثم نظرنا الى الجمال نظرة تجزيئية كنا على خطر عظيم، لم نأمن من التردي في شرك الحساسية الظاهرية للجمال، هذه الحساسية التي تحجب عنا روح النص. ولذلك رأينا يكبسون، وقد تناول بالدراسة يوميات ماشا Le Journal de Macha[5] يبرر العهر والانحراف الخلقي انتصاراً للفن. لذلك نرى أن تعريف الشعر بأنه (اللغة في وظيفتها الجمالية) تعريف

---

(١) R. Jackobson: Huit Questions de poétique. éd. de seuil, 1977-P. 8

لنسكي = احد أبطال رواية بوشكين الشعرية: Eugéne Onéguine

وانظر أيضاً: نظرية الادب ـ وارين ـ ويليك ـ ترجمة محيى الدين صبحي ـ دمشق.

(٢) مالك بن نبي: مشكلة الثقافة. دار الفكر ـ بيروت. ص ٧٣.

والحق أن انفعال المتفرج المسلم في هذا المشهد لا يظل جامداً، الا أن انفعاله يختلف عن انفعال المتفرج الاوروبي، فهو ليس انفعال تعاطف، ولكنه انفعال انسان، يرى امامه شخصاً ينفذ جريمتين. (راجع: المشكاة. ع١ ص. ٥٢).

(٣) T. Todorov: Qu'est-ce que le structuralisme. 2 Poétique. éd-seuil, 1968. P. 16

(٤) R. Jackobson: OP. cit. P. 16.

(٥) Ibid, 37

قاصر، فنحن لا يمكننا الغاء الوظيفة الخلقية، أو بتعبير أصح: أن الرسالة الجمالية ليست محصورة في الشكل فحسب، بل هي تنصرف الى المضمون أيضاً، لان النفس كما ترتاح الى الشكل الجميل، ترتاح كذلك الى المعنى الجميل.

ان ياكسبون نفسه يقرر أن الفن لا يكفي ذاته بذاته، بل هو جزء من النظام الاجتماعي، ومكون متغير يظل في علاقات متبادلة مع غيره من العناصر لان دائرة الفن وعلاقتها مع الدوائر الأخرى المكونة للبنية الاجتماعية تتبدل باستمرار، بطريقة جدلية.

ان ما ينبغي تأكيده ليس انفصالية الفن، بل استقلال الرسالة الجمالية. ولكننا وان سلمنا باستقلالية الرسالة الجمالية (وهو موضع خلاف) نكون ملزمين بعدم القول بانفصالية الفن، لانه مرتبط بباقي مقومات البنية الاجتماعية، ولذلك فان فهم النص، وان كان ينبغي أن ينطلق من النص نفسه الّا أنه لا ينبغي الاستخفاف ببقية العناصر المتشابكة مع نسيجه المتميز.

والحق أن تأويل أثر أدبي، أو غير أدبي، في ذاته ولذاته ودون تركه لحظة واحدة، ودون عرضه الا على ذاته يبدو الى حد ما مستحيلاً. أو لنقل: ان هذه المحاولة ممكنة بيد أن الوصف لن يكون عندئذ غير تكرار حرفي للأثر نفسه[1]. ولذلك فان الفرق بين تأويل المعنى ووصفه فرق في الدرجة وليس في الطبيعة.[2]

ان الحقيقة واحدة وان كان من الممكن أن تكون تجلياتها متعددة، وذلك سبب آخر من أسباب رفض النص أن يصبح سلاحاً ضد نفسه.

ان الحقيقة المادية واحدة. والحقيقة النفسية واحدة أيضاً، الا أنها ـ لكونها معقدة بطبيعتها، ولانها مكونة من عدد من العناصر المتداخلة ـ لا تسلم قيادها في يسر، وهي لا يمكن أن تكون الشيء ونقيضه، الّا أننا لا نملك من الوسائل والأدوات ما يمكننا دائماً ـ من أن نحكم فيها حكماً جزماً، أو نحدد دلالاتها تحديداً قطعياً، ولذلك نكون محمولين على محاولة وصف جوهرها بآثارها كما نحكم على الشخص بالارتياح من انطلاق اساريره وجهه أو بالانقباض من انقباضها.

واما الحقيقة المادية (الواقعية) فهي لا تحتمل أكثر من وجه واحد، ولذلك يكون من المستحيل وجود الشيء وعدمه في وقت واحد، كأن نحكم على أبي الطيب بأنه

(١) Todorov, OP. cit. 16

(٢) Ibid: 18

كان ـ في لحظة واحدة ـ متزوجاً وغير متزوج، انطلاقاً من نص واحد. ومع ذلك فان عزل النص عن مجاله الذي يتنفس فيه قد يقود الى مثل هذه النتيجة المتناقضة.

لقد حدد محمود محمد شاكر تاريخ زواج أبي الطيب من خلال القصيدة التي مطلعها:

سِرْبٌ مَحَاسِنُهُ حُرِمْتُ ذَوَاتِهَا دَانِي الصِّفَاتِ بَعِيدُ مَوْصُوفَاتِهَا[1]

استناداً الى هذين البيتين:

وَتَرَى الفُتُوَّةَ والمُرُوَّةَ والأُبُـ ـوَّةَ فِيَّ كُلُّ مَلِيحَةٍ ضَرَّاتِهَا
هُنَّ الثَّلاثُ المَانِعَاتِي لَذَّتِي فِي خَلْوَتِي لاَ الخَوْفُ منْ تَبِعَاتِهَا[2]

قال: «إن المتنبي بعد مرجعه الى الشام سنة ٣٢٦، ذكر لأول مرة في شعره «الأبوة» . . . ولعل ولده هذا الذي ذكره في قوله «الأبوة» هو «محسد» الذي ورد ذكره في خبر مروي وهو بواسط سنة ٣٥٤». .[3]

ومن نفس القصيدة، واستناداً الى نفس المنهج، يستدل عبدالوهاب عزام على عزوبة الشاعر. قال: «يقول أبو الطيب في قصيدة يمدح بها أبا أيوب أحمد بن عمران، وهو أحد ممدوحيه في الشام قبل اتصاله ببني حمدان:

في النَاسِ أَمْثِلَةٌ تَدُورُ حَيَاتُهَا كَمَمَاتِهَا ومَمَاتُهَا كَحَيَاتِهَا
هِبْتُ النِّكَاحَ حَذَارَ نَسْلٍ مثلها حَتَّى وَفَرْتُ عَلَى النِّسَاءِ بَنَاتِهَا

وهذا يدل على أنه لم يتزوج الى ذلك الوقت. وان أخذنا بترتيب الديوان فقد أنشأ هذه القصيدة بعد مفارقته بدر بن عمار، أي بعد سنة ٣٢٩هـ وسن أبي الطيب حينئذ زهاء ستة وعشرين عاماً.
ولا ندري متى تزوج». .[4]

وبيتا شاكر لا يتناقضان مع بيتي عزام، بل هي أبيات تتكامل في التعبير عن الحقيقة النفسية التي تلوح من القصيدة، هذه الحقيقة المرتبطة بالتعفف والاباء.

---

(١) البرقوقي: ١/٣٤٧.
(٢) نفس المصدر: ١/٣٤٩ ـ ٣٥٠.
(٣) المتنبي ١/١٢٠ ـ ١٢١.
(٤) ذكرى أبي الطيب: ١٩٧.

وليس الخلاف في شرح شعر أبي الطيب وتأويله بجديد. وتعقب ابن فورجه ابن جني، وجه من أوجه ذلك الخلاف.

قال ابن جني في قول أبي الطيب:

فَلَا تَسْمَعَنَّ مِنَ الكَاشِحِينَ وَلَا تَعْبَأَنَّ بِمَحْكِ اليَهُودِ

«جعل اعداءه يهودا ولم يكونوا في الحقيقة يهودا»[1]

قال ابن فورجه: «هذا نفي ما أثبته قائل هذا الشعر، ولا يقبل إلّا بحجة من نفس الشعر»[2]

وما ذهب اليه ابن فورجه يعصمنا من التأويل البعيد الذي قد يناقض الشعر، الا أن ما ذهب اليه ابن جني قد يقبل بلاغياً، لولا أن مجموع شعر أبي الطيب وسيرته أيضاً، يقوي مذهب ابن فورجه.

وهكذا فان المنهج الذي ارتضيناه يقوم على تناول النص باعتباره معطى حضارياً يسبح في فضاء حضاري لا ينسلخ عنه وان كان يتصدى لما يلحق الكيان من تشويه او تزييف. فنحن ننطلق من النص ـ الذي يظل حكماً فيما نصل اليه من نتائج ـ لا لحبس ذواتنا داخله، بل للانطلاق من النفس الى الآفاق، أي من الذات الى الذوات، آخذين بعين الاعتبار رفض ما يصادم طبيعة النص، أو لا يستجيب لروحه، ولكننا نقول، كما يقول بعضهم (النص ـ ولا شيء غير النص)، لأننا نرى ذلك المنهج قاصراً كما بينا، وكما سيزداد جلاء، ان شاء الله.

ولذلك نجد أنفسنا مشايعين لما ذهب اليه جاسم عبود حين قال: (حريّ بالنصوص الأدبية ان تدرس بمنهج من الطريقة الإسلامية، فلا يؤخذ البيت الشعري وحدة مستقلة، ويجرد من ظرفه المعاش، ويعرى من الملابسات العامة التي حاطت بنظمه ونظم القصيدة المستل منها، وتهمل معاناة الشاعر في ذلك)[3]

اننا لا نقول باستحالة تأويل النص بمعزل عن محيطه، الا أن من حقنا ان نشك في قيمة النتائج التي تصدر عنه.

---

(١) التبيان في شرح الديوان: ١/٣٤٧.

(٢) نفس المصدر: ١/٣٥١.

(٣) جاسم محسن عبود: التطلع القومي عند المتنبي ـ بغداد ١٩٧٦. ص ٤٤.

واذا كنا نذهب طبقاً للمنهج المقترح الى الانفتاح على ما يحيط بالنص من معطيات حضارية متنوعة، فهل يعني هذا أن نُحَكِّمْ في النص الشعري نتائج بعض العلوم الخارجة عن نطاق الأدب، كعلم النفس أو علم الاجتماع؟

لقد أكد تودوروف أن العلاقة بين «الشعرية» Poetique والعلوم الأخرى التي يمكن أن تجعل من الأثر الأدبي موضوعاً لها، قد تبدو (على الأقل في النظرة الأولى) علاقة تنافر.(١)

وقد لاحظ ما يعمد اليه الانتقائيون من التوجه بالتحليل الأدبي أحياناً وجهة لغوية أو وجهة نفسانية، أو يجعلونه يقوم على علم الاجتماع، أو على تاريخ الافكار. ويقال لنا: إن وحدة كل هذه الاتجاهات تنبع من وحدة الموضوع: (الأدب).

لقد أبرز تودوروف زيف هذا الادعاء ومناقضته للمبادىء الأولية للبحث العلمي، إذ أن وحدة العلم لا تبنى على أساس فردانية الموضوع، وهكذا فان ما قام به فرويد، على سبيل المثال، من تحليل لبعض الآثار الأدبية لا ينتمي إلى (علم الأدب) وإنما ينتمي إلى علم النفس.

إنه من الممكن أن تستعين العلوم الانسانية الأخرى بالأدب، كمادة لتحليلاتها ولكن تلك التحليلات في خاتمة المطاف تكون جزءاً من تلك العلوم، لا من الأدب.

أما اذا كان تحليل نفسي، أو اجتماعي، لنص ما، غير جدير بأن يكون جزءاً من علم النفس أو من علم الاجتماع، فاننا لا نرى كيف يمكن أن يقبل تلقائياً ضمن (علم الأدب)(٢).

ولذلك يكون من الجائز جداً أن نستعين على فهم النص الأدبي وتحليله بنتائج بعض العلوم المختلفة ولكننا لا نقبل بحال أن تهيمن تلك العلوم ونتائجها على مجال دراستنا.

- ٦ -

رب كلمة تمهد السبيل، ورب لمحة تفتح أفقاً. وانه لحق علي أن أزجي الشكر العميق، والثناء الجميل لكل من قدم لي عوناً في سبيل انجاز هذه الدراسة، أولهم استاذي الجليل الدكتور عباس الجرارى الذي كان له على هذا البحث وصاحبه فضل كبير، بخلقه الواسع، وعلمه الغزير، وانأنسى لا أنسىما كان لزيارته لي بباريس، وأنا

(١) OP. cit. 22

(٢) OP. cit, 22-23

أعاني من تلاطم أمواج البحث، من أثر حتى لكأني نشطت من عقال، واهتديت بعد حيرة الى طريق لاحب.

وشكري موفور أيضاً للدكتور محمد حميد الله والدكتور مصطفى الشويمي والدكتور أندريه ميكال، والدكتور عماد الدين خليل والشاعر حكمت صالح، والأديب فاضل السباعي، والشاعر مصطفى النجار، والأستاذ سمر روحي الفيصل، وفضيلة الشيخ أبي الحسن الندوي، والاستاذ محمد الرابع الندوي والاستاذ عبد النور الندوي، وكذا الدكتور عبد السلام الهراس، والدكتور محمد ابن شريفة، والدكتور أحمد الطرابيسي، والدكتور حسن الوراكلي والاستاذ الشاهد البوشيخي، والدكتور مصطفى الشّابي، والاستاذ مصطفى ابن حمزة، والاستاذ محمد عبد الصمد الاجراوي.

وبعد، فآمل أن أكون قد حققت بعض ما كنت أرجوه من كشف بعض المكونات الاستشراقية، رؤية ومنهجاً، في دراسة وجدان أمتنا من خلال شاعرها الأكبر: أبي الطيب المتنبي، فان أكن قد وفقت فيما سعيت اليه، فبفضل من الله تعالى، وأن تكن الأخرى فحسبي أني سلخت شطراً من عمري، بحثاً عن الحق وحده.

والحمد لله أولاً وآخراً.

وجدة: ٥ محرم ١٤٠٨/٣١ غشت ١٩٨٧.

obeikandl.com